الفصـــــــل الثالث عشـــر

العرب في الإسكندرية والخليفة عمر

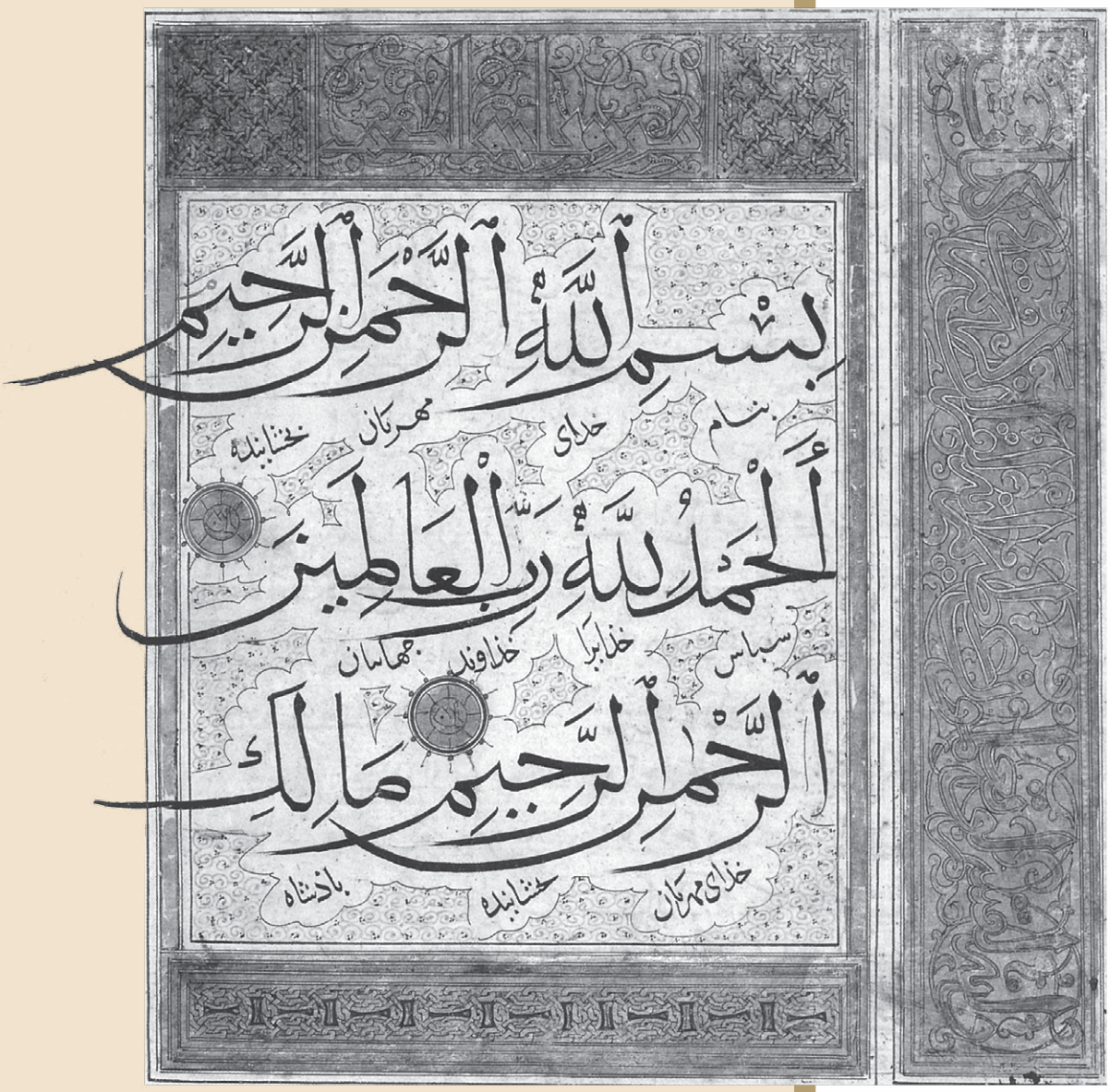

Никифоръ царь на Болгары
Ирѫмъ князь ухватиникифоръ
нашь чьтлавжего

قامت القوات العربية عام ٦٤٢ م بالسيطرة على الإسكندرية تحت قيادة الأمير عمرو بن العاص قائد الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك بعد أن استولوا على مدينة منف مباغتة ثم استمروا في تقدمهم بضم برقة دون نية لتوقيف خططهم التوسعية عند هذ الحد.[١]

وعندما أحكم الأمير عمرو بن العاص (المعروف باسم Ἄμβρος باليونانية) سيطرته على الإسكندرية، أرسل خطاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب - تمت الإشارة إليه في حوليات أوتيخيوس بطريرك الإسكندرية - وذكر فيه ما يلي: «لقد قمت بالاستيلاء على مدينة الغرب البهيّة وأعجز عن حصر ثرواتها ومحاسنها، ولكني سأقتصر على ذكر أنها تشتمل على ٤٠٠٠ قصر، و٤٠٠٠ حمام عام، و٤٠٠ مسرح أو مكان للهو، و١٢٠٠٠ متجر فاكهة و٤٠,٠٠٠ مواطن يهودي.[٢] لقد تمت السيطرة على المدينة بقوة السلاح ودون معاهدة ويتوق المؤمنون إلى التمتع بثمار النصر». كان الأمير عمرو رجلاً حصيفاً، ولم يكن الأمر يتعلق فقط بعدم سماحه لقواته بنهب الإسكندرية، بل إنه لم يغضب - محاولاً الانتقام - من هجمات البيزنطيين المتكررة لاستعادة المدينة، كما أبرّ بقسمه في أن يجعل الإسكندرية «مثل بيت الزانية يُؤتى من كل مكان» فهدم جزءًا كبيراً من أبراجها وسورها، ثم أقام مسجد الرحمة في نفس الموضع الذي أقنع فيه جنوده بعدم سلب المدينة.[٣]

☞

٢٨٠. مأخوذة من السرد التاريخي الذي قدمه قنسطنطينوس ماناسّي (١٣٤٤ - ١٣٤٥)، حيث يتم تصوير أسْر الإمبراطور نقفور الأول على يد كروم خان البلغار. مخطوطة جلدية مصغّرة تمت كتابتها على الأرجح من قبل الراهيب سيميون. مكتبة الفاتيكان الرسولية.

حرق مكتبة الإسكندرية المزعوم على يد الخليفة عمر

هناك رواية نمطية تتردد إلى يومنا هذا على الرغم من أن بعض المؤرخين البارزين قد عبروا بشكل متكرر عن شكّهم في مدى صحتها، وتستند تلك الرواية إلى ما ورد في كتاب (تاريخ الحكماء) للمؤلف علي بن القفطي - الذي وُلد في صعيد مصر بمدينة قفط وعاش في الإسكندرية منذ عام ١١٧٢ م وحتى عام ١٢٤٨ م[٤] - وتقدّم لأول مرة سرداً تاريخياً لأحداث تدمير بقايا مكتبة البطالمة التي لعب فيها دوراً رئيسياً شخص يُدعى يوحنا النحوي.[٥] وترجع أصول يوحنا إلى الإسكندرية حيث كان تلميذاً لسيفيروس وكاهناً قبطياً كما كان شاهد عيان على غزو العرب لمسقط رأسه، فالتقى شخصياً بالأمير الفاتح عمرو بن العاص وأدرك مدى حصافته وفكره، بينما نجح في الوقت نفسه في إثارة إعجابه بمعارفه الثرية. وفي أحد لقاءاتهما تحلى بالشجاعة في التعبير عن طلب له قائلاً لعمرو بن العاص: «بما أن كل كنوز المدينة صارت ملكاً لكم، أود أن أطلب منكم أشياء معينة لا فائدة لها عندكم ولكنها قيّمة بالنسبة لي»، وعندما سأله عمرو بن العاص عن مقصده، أجابه يوحنا بأنه يرمي إلى الكتب المحفوظة في الخزائن الملكية والتي تحتوي على الكثير من الحكمة، فأراد الأمير معرفة المزيد عن تلك الكتب، وحينئذ أخبره يوحنا بما تحتويه رسالة أريستياس مشيراً إلى الملك بطيموس الثاني فيلادلفوس وديميتريوس الفاليروني،[٦] فلم يرفض عمرو بن العاص طلب يوحنا ولكنه

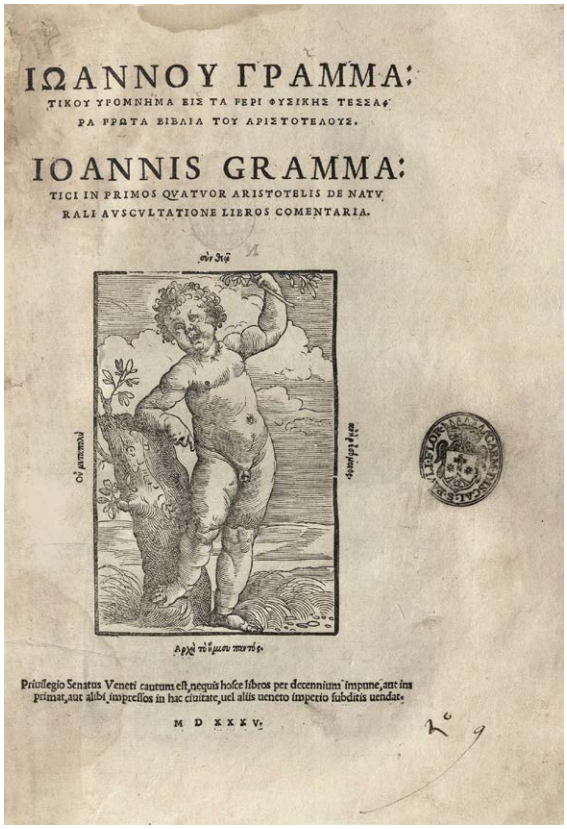
ΙΩΑΝΝΟΥ ΓΡΑΜΜΑ:
ΤΙΚΟΥ ΥΠΟΜΝΗΜΑ ΕΙΣ ΤΑ ΠΕΡΙ ΦΥΣΙΚΗΣ ΤΕΣΣΑΡΑ ΡΗΤΑ ΒΙΒΛΙΑ ΤΟΥ ΑΡΙΣΤΟΤΕΛΟΥΣ.
IOANNIS GRAMMA:
TICI IN PRIMOS QVATVOR ARISTOTELIS DE NATVRALI AVSCVLTATIONE LIBROS COMENTARIA.
Priuilegio Senatus Veneti cautum est, ne quis hosce libros per decennium impune, aut imprimat, aut alibi impressos in hac ciuitate, uel alitis ueneto imperio subditis uendat.
M D XXXV.

٢٨١. صفحة العنوان من طبعة يوحنا النحوي (فيلوبونوس)، «Ἰωάννου Γραμματικοῦ Ὑπόμνημα...»، Giovanni Francesco Trincavelli، فينيسيا، Bartholomeo Zannetti، ١٥٣٥.

الكتب، وحينئذ أخبره يوحنا بما تحتويه رسالة أريستياس مشيراً إلى الملك بطيموس الثاني فيلادلفوس وديميتريوس الفاليروني،[٦] فلم يرفض عمرو بن العاص طلب يوحنا ولكنه

اشـترط موافقـة الخليفـة عمـر حتـى يتـم تنفيـذ ذلـك الطلـب، وهنـا جـاء الجـواب القاطـع مـن عمـر بـن الخطـاب: «إن كان في الكتـب مـا يوافـق كتـاب اللـه ففـي كتـاب اللـه عنـه غنـى، وإن كان فيهـا مـا يخالـف كتـاب اللـه فـلا حاجـة بنـا إليهـا فتقـدم بإعدامهـا».

امتثـل الأمـير عمـرو بـن العـاص لأمـر الخليفـة عمـر وقـام بتفريـق الكتـب عـلى جميـع الحمامـات العامـة في الإسـكندرية لإحراقهـا في مواقدهـا، حتـى قيـل أن حـرق كافـة الكتـب قـد اسـتغرق مـدة سـتة أشـهر ولم يُسـتثنى منهـا سـوى كتـب أرسـطو.[٧]

تعليـق: كانـت روايـة بـن القفطـي التاريخيـة التـي تحدثـت عـن حـرق العـرب للمكتبـة الملكيـة هـي المصـدر الجـزئي أو الأسـاسي في كتابـة المزيـد مـن النصـوص المتعلقـة بهـذا الأمـر مـن قِبـل كُتّـاب الـشرق اللاحقـين، بينـما أصبحـت تلـك الروايـة معروفـة في أوروبـا خـلال القـرن السـابع عـشر فقـط. وفي محاولـة لـه لتوضيـح الأمـر برمتـه قـام A.J. Butler في بدايـة القـرن المـاضي بالتشـكيك في صحـة هـذه الروايـة، وكان لموقفـه هـذا العديـد مـن المؤيديـن والمعارضـين في نفـس الوقـت.[٨] ومـن ناحيـة أخـرى يوضـح مصطفـي العبـادي في كتابـه (مكتبـة الإسـكندرية القديمـة) سـبب وجـوب عـدم قبـول هـذه الروايـة أو رفضهـا بشـكل عـام، حيـث يجـب الحكـم عليهـا مـن جوانـب مختلفـة ومقارنـة بالمصـادر القديمـة.[٩]

تُشـير الفقـرة الأولى مـن روايـة ابـن القفطـي إلى حيـاة وشـخصية يوحنـا النحـوي وتسـتند إلى نـص قديـم لابـن النديـم يعـود تاريخـه إلى القـرن العـاشر، وعـلى الرغـم مـن أن ابـن النديـم قـد تحـدث بالتفصيـل عـن حيـاة يوحنـا النحـوي ومعرفتـه بعمـرو بـن العـاص إلا أنـه لم يقـم بـأي إشـارة إلى كنـوز المكتبـة الملكيـة عـلى الإطـلاق.[١٠] وتوجـد الفقـرة الثانيـة مـن الروايـة – والتـي تـسرد قصـة إنشـاء مكتبـة الإسـكندرية عـلى يـد بطليمـوس فيلادلفـوس – في نـص أقـدم ينتسـب إلى إسـحاق الراهـب، كـما قـام ابـن النديـم باقتباسـها كذلـك.[١١] ويعـد نـص هـذه الفقـرة مطابقـاً أيضـاً لمـا كتبـه يوانيـس تزيتزيـس (أثنـاء القـرن الثـاني عـشر) في مقدمتـه التـي تتضمـن تعليقاتـه عـلى أعـمال أريسـتوفانيس، وفي النهايـة نلاحـظ أن مـا ورد في الفقـرة الثالثـة مـن روايـة ابـن القفطـي – والتـي تشـير إلى المراسـلات التـي كانـت بـين عمـرو بـن العـاص وعمـر بـن الخطـاب، وإلى أمـر الخليفـة للأمـير بحـرق الكتـب وكذلـك مـا يتعلـق بالربـح العائـد مـن اسـتغلال أوراق الـبردي – لم يُذكـر في أي مصـدر سـابق.[١٢]

ويجـب البحـث عـن الإجابـة المتعلقـة بمـدى مصداقيـة الروايـة التاريخيـة

لابـن القفطـي في العلاقـات الثقافيـة التـي شـكّلها اليونانيـون مـع العـرب منـذ عهـد الخلافــة الأمويــة.

٢٨٢. يوحنا الدمشقي مؤلف عمل – متعلق بسيرة القديسين - «مناقب برلام وجوزافات». منمنمة مأخوذة من مخطوطة جلدية يعود تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث عشر، جبل آثوس، دير إيبيرون.

العلاقات الثقافية بين اليونانيين والعرب

في البداية كانت اللغة تمثل نقطة الاتصال الرئيسية بين هاتين الحضارتين، فبعد الفتوحات العربية وطوال فترة الخلافة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠ م) وربما حتى منتصف القرن الثامن وما بعده تم التحدث باللغة اليونانية (كلغة أم) في سوريا وفلسطين من قِبل جزء كبير من السكان الأصليين، بالإضافة إلى كونها اللغة الأساسية بالنسبة للتجّار الذين كانوا يستخدمونها في أنشطتهم التجارية وللكهنة المسيحيين المتعلمين وخاصة الملكيين، وبناءً على ذلك نلاحظ أن العديد من البرديات والعقود وغيرها من الوثائق المكتوبة باللغتين اليونانية والعربية تشهد على هذه الازدواجية اللغوية والتي كانت بلا شك هي الحالة السائدة أيضاً في مناطق خارج مصر خلال القرنين السابع والثامن،[١٣] كما كان العديد من موظفي الدولة وكذلك النّحاة يتحدثون اليونانية سواءً كانوا يونانيين محليين أو عرباً، وحتى في دمشق عاصمة الأمويين فقد كان الخلفاء يعهدون بالإدارة إلى البيزنطيين أو العرب المسيحيين. ويعد يوحنا الدمشقي الذي كان يعمل مستشاراً للخليفة عبد الملك من أشهر العرب الناطقين باليونانية.[١٤]

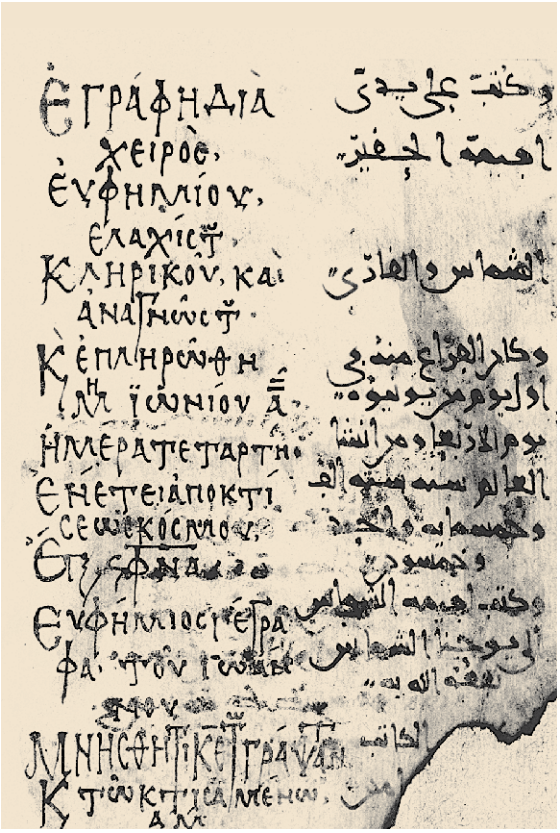

٢٨٣. حرد متن باللغتين اليونانية والعربية من «إنجيل لوقا»، قام بكتابته إيفيميوس، باريس، المكتبة الوطنية الفرنسية.

كانت القسطنطينية بمثابة الوجهة الثقافية لكافة هذه المجموعات الناطقة باليونانية والتي أحاطت بالأمويين وسيطرت بشكل فعليّ على السلطة الإدارية، ولكن مع صعود الخلافة العباسية إلى الحكم منذ منتصف القرن الثامن نلاحظ أن المشهد قد تغير بشكل جذري في ظل المبادرة الثقافية

والإصلاحات التي تم تنفيذها من قِبل بعض الخلفاء مثل المنصور وهارون الرشيد والمأمون. ففي الوقت الذي أعلن فيه المأمون حرباً شاملة ضد البيزنطيين، نجد أنه أعطى لتلك الحرب طابعاً أيدولوجياً كما حاول نشر فكرة أن البيزنطيين لم تكن لهم قيمة أمام المسلمين، وذلك ليس فقط لكونهم كفاراً ولكن لأنهم في الأساس لم يكونوا أنداداً لأسلافهم اليونانيين القدماء من الناحية الثقافية. وقام بتغطية سياسته المعادية للبيزنطيين بوشاح يُظهر محبته للهيلينية من خلال تقديمه لحركة الترجمة العربية كدليل على قبول العالم العربي للحكمة النابعة من اليونان القديمة.[١٥]

ومع ذلك نلاحظ أن أهم علاقة فكرية بين اليونانيين والإسلام تكمن في مجال

٢٨٤. العلامة المسلم ابن رشد الذي ترجع أصوله إلى قرطبة (١١٩٨ – ١١٢٦).

الفلسفة، حيث أن أتباع الفلسفة (اليونانية) سيحاولون زرع الفكر الأرسطي المتمحور حول الإنسان في العالم الإسلامي مقارنة بتفسير حقيقة العالم المحيط بنا وفقاً لما يمليه الدين الإسلامي، ولذلك نجد أن الفلسفة العربية في مجملها تتردد بين الفكر اليوناني والرؤية النابعة من القرآن[١٦] ويظهر هذا التوجه نحو الفلسفة اليونانية القديمة في مجال العلوم أيضاً، حيث اشتغل الفلاسفة في الوقت نفسه بعلم الفلك والكيمياء والرياضيات والطب. فقد كتب ابن رشد أحد أشهر فلاسفة العرب (أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي) تحديداً في مقدمته المتعلقة بعمل أرسطو (حول السماع الطبيعي والمعروف أيضاً بالطبيعة) ما يلي: «إن مؤلف هذا الكتاب هو أرسطو بن نيكوماخوس أحكم الإغريق الذي أسس وأتمّ المنطق والفيزياء وما بعد

الطبيعة. أقول أنه قام بتأسيسها لأن جميع الأعمال ذات الصلة ... التي تمت كتابتها قبله لا قيمة لها... ولم يستطع أحد من لاحقيه حتى عصرنا هذا أي بعد حوالي ١٥٠٠ عام تقريباً أن يضيف شيئاً إلى كتاباته، أو يشير إلى خطأ ملفت للنظر فيها»، وقد ساعد الحكم الذي أبداه ابن رشد والذي يعود تاريخه إلى القرن الثاني عشر على الاعتراف بمدى معرفة أرسطو الفلسفية العظيمة في العالم العربي أيضاً.

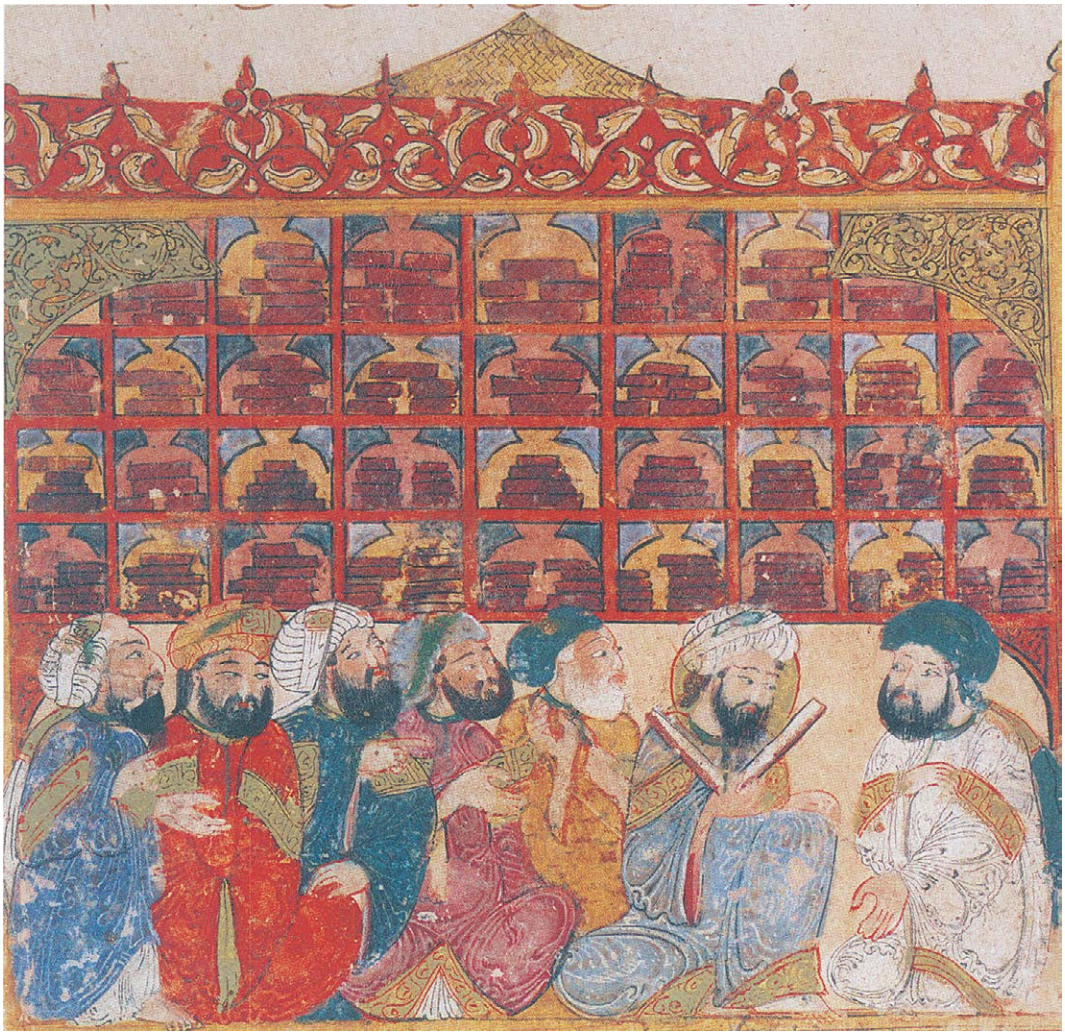

٢٨٥. مكتبة عربية بها مجموعة من العلماء يقومون بقراءة محتوى أحد الكتب والتعليق عليه. منمنمة من مخطوطة مقامات الحريري، باريس، المكتبة الوطنية الفرنسية.

الخاتمة

وأخيراً ماذا كان مصير مكتبة متحف البطالمة، المكتبة العالمية الوحيدة التي تم إنشاؤها على الإطلاق؟ قبل أن نبدي رأينا بخصوص ذلك، دعونا نعرض بإيجاز ما أشارت إليه المصادر عن مكتبة الإسكندرية.

لسوء الحظ لم يتبق أي مصدر موثوق يوضح لنا الفلسفة التي تبناها كل من بطليموس سوتير وبطليموس فيلادلفوس وكذلك خلفاؤهما في إنشاء مكتبة الإسكندرية، والتي توفر لنا وصفاً تفصيلياً للمكتبة وللتخطيط العمراني المتعلق بمكان المتحف داخل مجمّع المباني التي يحتوي عليها القصر. وفيما يتعلق بعملية التنظيم الداخلي للمتحف ومكتبته وطريقة عملهما فلا نعرف سوى القليل، وهو ما تمت الإشارة إليه في البردية التي ذكرت أسماء رؤساء المكتبة ابتداءً من زينودوتوس وحتى كيظاس ومَن قاموا بخلافتهما في هذا المنصب، وأما فيما يخص العدد الدقيق للكتب التي كانت محفوظة في مجمع القصر فلا يمكننا التحدث عنه سوى بشكل افتراضي.

وحتى عهد الملكة كليوباترا السابعة واحتلال الإسكندرية من قِبل يوليوس قيصر، لا يبدو أن المكتبة أو المتحف وكذلك مجمع المباني التي يحتوي عليها القصر بأكملها قد تعرضت لأي ضرر من حريق أو غيره، كما أنه لا يوجد دليل على «حرق» المكتبة أثناء الحرب السكندرية التي لعب فيها كل من يوليوس قيصر وبطليموس الثالث عشر دوراً بارزاً، ومن المرجح أن عدداً كبيراً من الكتب المصنوعة من أوراق البردي غير المكتوبة والتي تم تخزينها في المباني الواقعة داخل الميناء الملكي في ذلك الحين قد دمرته النيران بالفعل.

بدأت عملية استنزاف ثروات المكتبة منذ الوقت الذي تعرضت فيه الإسكندرية للاحتلال الروماني، وربما قام الإمبراطور أغسطس من أجل إنشاء مكتبة مزدوجة (يونانية ولاتينية) في مجمّع معبد divus Julius المهيب بتجريد المكتبة من بعض نسخ الكتب التي كانت تحتوي عليها، ومن المحتمل أيضاً قيام الأباطرة الرومان بإثراء المكتبات العامة المزدوجة في روما بالكتب المحفوظة في مكتبة الإسكندرية. وفي النهاية لا يمكن لأعمال التخريب التي حدثت في الإسكندرية بسبب حصار أوريليانوس ودقلديانوس أن تدعم احتمالية امتدادها أيضاً إلى منطقة المتحف والمكتبة.

منذ وقت انتشار المسيحية واعتمادها كديانة رسمية في الدولتين الرومانيتين الغربية والشرقية (البيزنطية) بدأ تأريخ الاضطهاد ضد الوثنيين والمسيحيين بهدف تدمير رموزهم

ونبـذ عقائدهـم، وتـم تسـجيل ذلـك الاضطهـاد في الأدب اليونـاني الرومـاني القديـم وفي النصـوص المقدسـة وبشـكل محـدد في العهـد القديـم والعهـد الجديـد. وفي ظـل هـذا الاضطهـاد لم يتـم تدمـير الأعـمال القيّمـة التـي كان يحتـوي عليهـا الأدب اليونـاني القديـم فحسـب، بـل إن هـذا الأمـر قـد أدى إلى اكتسـاب لفائـف الـبردي قيمـة أكـبر مـن محتواهـا نفسـه.

عندمـا قـام العـرب بالاسـتيلاء عـلى الإسـكندرية عـام ٦٤٢ م وجـدوا أنفسـهم أمـام مجموعـة مـن الكتـب تمثـل مـا تبقـى مـن مكتبـة الإسـكندرية، وقـد ذكـر الإخبـاريّ ابـن القفطـي ذلـك الحـدث مشـيراً إلى تدمـير الكتـب وفقـاً لمـا جـاء في بيـان الخليفـة عمـر، والـذي اقتـضى إتـلاف تلـك الكتـب سـواءً كان محتواهـا موافقـاً لمـا جـاء في القـرآن أو مخالفـاً لـه، ومـع ذلـك يبـدو أن روايـة ابـن القفطـي كانـت خياليـة ذات طابـع رمـزي.

في النهايـة أعتقـدُ أنـه نظـراً لعـدم وجـود أحـداث تاريخيـة تُثبـت وقـوع التدمـير، لابـد وأن مكتبـة البطالمـة العالميـة بالإسـكندرية قـد واجهـت نفـس المصـير الـذي يخفيـه القـدر لأي مجموعـة مـن الكتـب، بمجـرد أن تبـدأ في عـدم تمثيـل وخدمـة هدفهـا الأصـلي يتـم هجرهـا مـع مـرور الزمـن والتعـدي عليهـا حتـى يـؤول بهـا الأمـر إلى الهـلاك والـزوال.

تمهيد الفصل الرابع عشر

يتنـاول الفصـل الرابـع عـشر والأخـير المسـائل المرتبطـة بالتخطيـط الحـضري والمعـماري المتعلـق بالقوانـين التـي تبناهـا الإسـكندر الأكـبر ومستشـاره المهنـدس المعـماري دينوقراطيـس في تصميـم الإسـكندرية مـن ناحيـة، وبشـكل المتحـف والمكتبـة فيـما يتعلـق بالعـمارة المقدونيـة وقواعـد التصميـم التـي تـم تطبيقهـا داخـل معابـد ربـات الإلهـام في مختلـف المـدارس الفلسـفية مثـل أكاديميـة أفلاطـون والمدرسـة الثانويـة مـن ناحيـة أخـرى. بالإضافـة إلى ذلـك سـيتم التحـدث في هـذا الفصـل عـن كلٍ مـن الهندسـة المعماريـة والتخطيـط الداخـلي لمنـارة الإسـكندرية (فـاروس) التـي كانـت تقـع عـلى الجزيـرة التـي تحمـل نفـس الاسـم، والـدور الـذي لعبـاه في عمـل إحـدى عجائـب الدنيـا السـبع القديمـة بشـكل سـلس.